في تغير المعنى وفي معنى التغير

جماعة من الباحثين

ترجمة عبد الحميد بورايو

1ـ ماهي الحكاية؟

لقد تمت ممارسة رواية الحكايات باعتبارها بنية سردية بسيطة ومستقرة إلى حد ما، تتميز في نفس الوقت بثبات أغراضها ومسارها السردي وبتغير دلالتها وصيغ التعبير عن هذه الدلالة، مع ذلك فإن هذا الحكم المعتمد على سلامة التقدير لايكفي لتحديد النوع، إننا كلما حاولنا محاصرة هذا الأخير، نصطدم في الواقع في الآداب الشفاهية بمشكل حاد بشكل خاص.

تتعلق الصعوبات قبل كل شيء بالتجذر الثقافي لأصناف الآداب الشفوية، كل ثقافة تمفصل وتنظم بطريقتها الخاصة تعبيرها الأدبي في إطار الإستخدام الخاص الذي تشكل به انتاجاتها الثقافية مما يعني أيضا وجود تحدّيد اجتماعي وتصنيف خاص للأنواع، نظرا لعدم تطابق عمليات تصنيف الأنواع الشفوية في الثقافات المختلفة، ينفتح أمام الباحث سبيلان متكاملان يؤديان

إلى المسك بحقيقة الحكاية، إنه يستطيع أن يدرس في ثقافة ما أو في عدد من الثقافات التي يتعامل معها النظام المحلي للأصناف الأدبية يستطيع أيضا أن يبحث عن مجموع الملامح الممزة التي تعزل هذا النوع السردي في عدد كبير من الثقافات من أجل استخلاص تحديد عام أو عالمي للحكاية، على كل حال، فإن هذا السبيل الأخير يوصل إلى موضوع مثالي يجد مبرره في قيمته العملية التي تسمح بالاتصال بين المتخصصين في الاداب الخاصة، سوف نذكر فيما بعد الملامح التي اعتمادناها في أعمالنا من أجل منح نفس الأساس النوعي للحكاية لنصوص سردية شديدة الإختلاف.

أ ـ خصائص النوع

هذه الملامح كما سنرى هي من طبيعة مختلفة ولاتصلح إلا لتحديد ميداني لموضوع بحثنا ليست جميعا بالضرورة مفيدة في جميع الحالات:

1 – الشروط التي تنظم عملية التلفظ (المكان، الزمان، الليل عادة، الراوي المصرح له بالرواية، إلخ...)

2 – تعارضات في الأسس المعرفية: تكون سلبية بالنسبة للحكاية، باعتبارها اختلاقا خيالا، كذبا (أي شيء غير حقيقي)

3 – ملامح سردية نمطية: صيغ افتتاحية وختامية

4– ملامح شكلية تتطلب خيارات لغوية (صيغ فعلية، معجم تعبيري، حواريات..)، بنائية (تكرار بنيات سردية بسيطة)، خطابية (حركات، تنويعات صوتية) تصلح لمسرحة القصة وتلعب دورا أساسيا في نقل الرسالة.

5– التأليف بين الواقعي والخيالي مما يخلق تعدّداً في المعاني، تكثيفا ومضاعفة للدلالات.

6 – النقل بواسطة نظام رمزي، نماذج ثقافية، رؤية للعالم خاصة بمجتمع ما، تظهر جميعا من خلال نزعة أخلاقية واضحة أكثر مما تظهر من خلال احتجاج أو خيالات وهمية، إلخ..

ب ـ قابلية التغير

إذا كانت هذه المقاييس تسمح بمحاصرة موضوعنا بالنسبة للباحث هناك ميزة أساسية تطبع هذا الموضوع إنها قابليته للتغير التي تعود بالضبط لسجله الشفوي، هذه القابلية، في الحدود التي تكون فيها متعلقة بالعناصر المكونة للحكاية ـ يمكن تسميتها معجما ـ أكثر مما تكون متعلقة بالمقصد الدلالي لمجملها، تظهر مرتبطة بتوجه النوع نفسه.

مهما كانت الحكاية، في البداية خلقا فرديا، هي بفعل الانتقال وإعادة الإنتاج الشفوي نتاج جمعي، بقاؤها نفسه يدل على استجابتها لحاجة جمعية وصيغة انتاجها تتماشى مع متطلبات الجماعة.

إن إستمرار وجودها مرهون ـ بشكل متناقض ـ بالتحولات التي تقع نتيجة عوامل عديدة ذات طابع تطوري أو تزامني ـ تاريخي أو ثقافي، خارجي أو داخلي ـ يمكن أن تنتج مثل هذه التحولات عن تطور أو إنهيار للعلاقات الاجتماعية ـ التي قد تكون بسبب الغزو الاستعماري والعصرنة على سبيل المثال ـ التي تصيب رؤية العالم التقليدية.

هناك تحولات أكثر سرعة وأكثر ظرفية تقع بفعل الموهبة الشخصية للرواة ونوع الجمهور ومدى استعداد الجماعة لتقبل تحديدات سردية، تحتمل كل رواية إذن وجود عناصر قديمة وأخرى حديثة. بالإضافة إلى ذلك تقترح الحكاية باعتبارها خطابا جمعيا، بخصوص المشاكل والوضعيات ذات الحلول المتعددة، أجوبة محتملة تختلف من مجتمع لآخر، وأحيانا في نفس الجماعة، حسب المستويات المرجعية المختلفة. هكذا كل تحقيق لحكاية يمكن أن ينظر إليه على أنه مصفاة تمسك بالأجزاء الصلبة ـ الأنوية الثابتة ـ وتسمح بمرور واختفاء غيرها بمقدار معين، هذه الأخيرة يحتمل أن يتم استبدالها لكنها يمكن أيضا أن تعود للظهور من جديد فيما بعد.

على أي حال، مهما كانت الأسباب العميقة، فإن التحولات في القصص تخضع لمنطق سردي خاص بحيث أن التحليل يمكن أن يتهيأ لها شريطة أن يقوم علي أساس مادة كافية.

في التعبير النصي، يتحقق التغير بطريقتين:

- إما أن تكون العناصر المتغيرة لنفس الحكاية متعادلة، أي قابلة للإستبدال، فلا يصيب التحول معنى القصة الا سطحيا: نفس المدلول يتم التعبير عنه عن طريق دوال مختلفة؛

- أو أن العناصر المتغيرة تبين عن معاني مختلفة في هذه الحالة نفس الحدث يتم توجيهه نحو سبل عديدة، قد تكون مختلفة.

إن القابلية للتغير التي يمكن المسك بها فعليا في العدد المتوفر من روايات حكاية واحدة يمكن أن تدل على الأهمية التي يوليها المجتمع الذي انتجها للغرض المعالج، إن الحكايات هي ثمار تجارب عديدة وعمل جمعي حقيقي في أحكام الصنعة، وهي تنضج تغنى.. أو تفتقر.

إن الثخن الدلالي للحكايات هو قبل كل شيء على علاقة مباشرة بهذه القابلية للتغير وهي قابلية تمثل بؤرة رؤيانا نحن الأنثروبولوجيين واللسانيين والأثنولسانيين لأنها بالذات حاملة للمعنى، أن جوهر تحليلاتنا إذن تنصب على المنظور الدلالي للحكايات وعلى الوسائل التي تحققه.

2 ـ مبادئ منهجية

يخضع تناولنا للحكايات الشفوية لبعض المبادئ البسيطة التالية:

- نهتم بالحكاية باعتبارها نصا منتجا في لغة معينة، ونفضل أن تكون دراسة النصوص في لغتها الأصلية، وذلك في حدود الإمكانات المتاحة، ومراعاة الأولويات.

- نعطي أهمية للسياق الاجتماعي الثقافي لنظام التمثيل الرمزي أين تندرج القصة وتأخذ معناها.

- نعطي الأهمية لتنوعات النصوص (الرويات) سواء كانت هذه التنوعات مدروسة داخل ثقافة واحدة أو تمتد لتشمل عدة ثقافات.

إن فحص حركية قابلية التغير تمثل حجر الزاوية في عملنا، الذي لهذا السبب يعتمد أساسا على المقارنة.

إن تخصص أعضاء مجموعتنا الخمسة في دراسة المجتمعات المنتمية لنفس المناخ الغرب - افريقي له دور في تفضيل هذا الإتجاه في العمل، في الحدود التي يمس فيها البحث مجالا ثقافيا متجانسا، مما يسمح بالسير قدما من هذا الاتجاه دون توقع موانع.

في الميدان التطبيقي تتمثل نقطة الإنطلاق في جمع مادة من القصص نفضل أن تكون في لغة معروفة من طرفنا وهي نتاج عملية جمع في قسم منها شخصية، في حالات أخرى نحاول قدر المستطاع أن نستخدم فقط المواد الموثوق بها.

بعد إقامة حدود الغرض الموضوعاتي Objet Thematique إنطلاقا من المواد الخاصة، نحاول إيضاح كلّ محمولة وكشف جميع مستويات الدلالة في كل ثقافة من الثقافات المدروسة، سوف يتم إثراء هذا التحليل عن طريق المقابلة بين النصوص المتشابهة والتي تكون فن منتوج ثقافات أخرى مجاورة.

أ – التحليل المقارن

أن الدراسة المقارنة، التي تتخذ كمادة لها مجموعة من القصص المكونة من تنوعات وروايات لنفس الأحداث، تكون موجهة عن طريق مسلمة عملية مفادها أن المادة تشكل نظاما يكون قابلا للفهم عندما ينظر إليه في ذاته. من هنا،

تكون القابلية المنظمة بين النصوص المتوفرة هي وحدها التي تمدنا بجميع الدلالات التي تحملها الحكاية. هذه المسلمة المنهجية ذات الصيغة التقريرية، تستتبع مسلمة أخرى، تتمثل في أن أي نص معزول مهما كان منتهيا، ومهما كانت درجة استقلاله الذاتي، لا يحتوي ولايمكن أن يسمح بالقبض على معناه الاجمالي.

غير أن التحليل المقارن، يطرح هو نفسه بعض المشاكل، في الواقع بعض العناصر السردية تظهر ثانية، متواترة من خلال الزمان والفضاء الاجتماعي - الثقافي مع ذلك تتلقى في مختلف الثقافات معالجات متمايزة ويتم استثمارها في دلالات خاصة، مما يدفع بالباحث للتساؤل حول هاتين الحقيقتين:

- نفس المدلول يتم التعبير عنه عن طريق عدد من الدوال في نفس الثقافة أو في ثقافات مختلفة.

- نفس الدال يتوافق مع مدلولات مختلفة في نفس الثقافة أو في ثقافات مختلفة.

عدم التطابق هذا بين الدال والمدلول يجد نفسيرا مريحا له عندما يظهر في ثقافات مختلفة. مادام كل نظام من هذه الأنظمة له طرقه في التمثيل الرمزي، عندما يظهر في نفس الثقافة، يمثل في الحالة - عدة دوال لنفس المدلول - درجة التردد الممكنة، في الحالة الثانية - عدة مدلولات لنفس الدال - تمنح مقياس تعدد المعاني.

أن المنهج المقارن - الفعال في التقاط الثوابت من خلال المتغيرات، من خلال المقارنة اللاسياقية - يكشف في حالة تعدد المعاني عن استخدام شديد الدقة، في الواقع يجب مقارمة عملية الصاق صفة التعادل بعناصر تظهر متشابهة بدون التأكد مسبقا من حقيقة مدلولاتها. إن التحليل الخاص بما بين الثقافات يجب أن يكون حذرا ولايتدخل إلا إذا ما تمت إقامة الصلة بين الدوال

والمدلولات في كل ثقافة، من أجل اجتناب خطر "الإسقاطات" أو سوء الفهم الثقافي.

أما بخصوص التحليل الخاص بما بين الثقافات Intra-Culturel تزداد أهمية الاختلافات المستخلصة بقدر ما تعمل على تحديد كيفية القيام بتقطيع الواقع والتعبير عنه، وبعبارة أخرى تحديد "رؤية العالم" الخاصة بكل ثقافة، في تحليلنا للحكايات، نستطيع أيضا من أجل وصف معنى العلامات، أن نستوحي الطرق الثلاث المتعلقة برمزية اللاوعي المستخلصة من طرف التحليل النفسي:

- التركيز أو ربط شبكة من الأفكار والمشاعر بنفس الرمز؛
- تغيير الموقع الذي يتمثل في انتقال فكرة أو شعور من حامل ظاهر الى حامل آخر يقدمه بطريقة أكثر أو أقل ملاءمة؛
- الإنقسام أو تقطيع شيء دال إلى مقطعين؛ أحدهما يأخذ الصفات المقبولة والآخر الصفات المرفوضة.

ب- اللجوء للأثنوجرافيا

هذا يعني، أننا ندعي طبعا بأن الرمزية يجب أن تكون دائما مستخلصة فقط من التحليل النصي وحده، في الواقع كل عنصر مكون للحكاية هو حامل لمعنى خارج النص. هذا المعنى هو ما ينتج عن كل بروز له في النظام الثقافي الخاضع للبحث. ويأخذ في النص معنى خاصا تسنده له وظيفته السياقية في النظام الذي يمثله مجمل المادة، لابد إذن في نفس الوقت من اللجوء إلى دراسة النصوص باعتبارها بنى دالة في ذاتها، وأيضا إلى الأثنولوجيا من أجل توضيح المعنى الثقافي، دون إهمال النظر وإعطاء الاعتبار للتعاليق الصادرة عن المعنيين أنفسهم (رواة وجمهور).

في عملنا الذي يعالج نصوصا شفوية لمجتمعات، نحن جميعا أجانب عنها، يتحتم علينا بشكل مثالي التوصل لاستماع للحكايات يكون أقرب ما يمكن من استماع متلقيها، أي الإمساك، بجميع المعاني الظاهرة والمختفية، البارزة والمتضمنة، مع أنّه حتى بالنسبة لهؤلاء المتلقين، هذا القرب المعاش من الداخل لايستتبع بالضرورة القبض الدقيق ولا الصياغة الواضحة لجميع الدلالات الممكنة، إنه لهذا السبب يجب على تحليلنا أن يتجاوز هذه المرحلة الأولى من أجل تأويل للأبعاد المتعددة للحكاية، وذلك عندما يتأسس ـ كما يفعله في أحسن الحالات ـ على علاقة حميمية بالثقافة المعنية.

لهذا يستعين التحليل بخطوتين متكاملتين تمت الإشارة إليهما سابقا: دراسة النص باعتباره بناء دالا والدراسة الاثنوجرافية، أيضا حسب الهدف الذي تم اختياره، طبيعة النصوص والجزء المتخذ على أنه المنهج المتبع، وقد تكون الأولوية معطاة، في مجرى التحليل، لهذا أو ذاك من هذه الخطوات.

في الواقع، إذا ماكان بحثنا مؤسسا دائما على الموازاة بين نصوص المادة والمقارنة فيما بينها، لأنه يمتحور خاصة حول الكشف عن المعنى، يظهر، حسب موضوع البحث الذي نقوم به ـ تحليل الأغراض، الحكايات الحوافز، وحتى العناصر ـ أن اللجوء للمعطيات الاثنوجرافية يصبح ضروريا أو على الأقل مثريا، الوسائل المستخدمة من أجل تأليف المادة تكون متعلقة بما بين الثقافات من صلات، المادة نفسها تكون إلى حد ما واسعة وتأليفها مقصود، وأخيرا يكون منهج التحليل متنوعا، يعتمد أكثر، هنا على المجموعات اللاسياقية، هناك على العلاقات السياقية، ثراء نوع الحكاية نفسه يتطلب ويسمح بجميع إمكانيات المقاربة هذه.

من أجل بيان طروحاتنا ومحاولة منا لإظهار كيف أن هذه المقاربات ـ التي أملاها علينا الهدف الذي نقصد إليه، وأيضا تكويننا واهتمامنا من جانب آخر ـ تتكامل وتغنى بشكل متبادل، نعرض فيما يلي بعض الأمثلة المختارة من بين أعمالنا.

1- «De la variabilité du sens et du sens de la variabilité»
Genevieve Calame-Griaule, Veronika Gorog-Karady, suzanne Platiel, Diana Rey-Hulmn, Christiane Seydou.
- Journées d'etudes en litterature orale, Analyse des contes, problemes des methodes, Paris 23 - 26 Mars 1982, Editions du CNRS: Le Conte pourquoi? Comment? Paris, 1984